الفصل الثالث

النزعة الإنسانية فى عصر النهضة

النزعة الإنسانية تميز الحياة الفكرية فى عصر النهضة

كان ينظر إلى العصور الوسطى على أنها تمثل فجرا جديدا بالنسبة إلى عصور من الظلام عاش فيها الغرب إبان حكم الامبراطورية الرومانية. لكن ما إن لاح عصر النهضة حتى بدا أنه فجر جديد بالقياس إلى العصور الوسطى التى أصبح يقال عنها إنها عصور الظلام. وسبحان الله فالق الإصباح، هو الذى يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل.

وكان من الطبيعى أن تتحول الأنظار بصفة خاصة فى عصر النهضة إلى الفلسفات اليونانية أو إلى التراث اليونانى. لماذا؟ لأن مفكرى عصر النهضة وجدوا فى هذا التراث إعزازا وإكبارا للعقل الإنسانى وقيمته وكرامته. وهى أمور كانت العصور الوسطى المسيحية قد قضت عليها أو كادت، إذ لم يكن لها مكان إلى جوار الله والكنيسة، بالرغم مما فى هذه النتيجة من منطق معكوس لا يتفق مع طبيعة الأمور لو استقامت، إذ إن الحياة الدينية المزدهرة لا يمكن إلا أن تؤدى إلى كرامة الإنسان واحترام عقله، ولا تنتهى أبدا إلى طمس العقل وقهر أو إهدار إنسانية الإنسان. على أى حال، فإن قدوم عصر النهضة قد حمل معه إحياء التراث اليونانى من أجل هذا السبب، بالرغم من أن هذا التراث وثنى فى طابعه العام ولم يقدم عن الله والألوهية إلا صورا لا تتفق مع الصورة التى قدمتها الأديان المنزلة. ويبدو أن رجال عصر النهضة ومفكريه وجدوا أكثر من وجه شبه بين المجتمع الأثينى ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن الخامس قبل الميلاد والمجتمع العبودى والإقطاعى الذى كان سائدا قبل ذلك فى كل من أثينا وأوربا، وما تلا ذلك من ظهور فجر مجتمع جديد تميز بالمناداة بالحرية الفردية والاقتصادية وشيوع الروح الديمقراطية والنزعة الإنسانية.

إلا إنه ينبغى أن لا يغيب لحظة واحدة عن بالنا – نحن المسلمين والشرقيين – أن التوجهات الفكرية التى ظهرت فى عصر النهضة الأوربية بالرغم من أنها توجهات

طيبة لا بأس من الاستفادة منها فى بلادنا فإنه قد صاحبها أمور خاصة تمنعنا من اتخاذ عصر النهضة الأوربية – من الناحية الفكرية على الأقل وهو ما يهمنا هنا بصفة خاصة – نموذجا لنهضتنا أو لصحوتنا المأمولة. فالعودة فى عصر النهضة إلى التراث اليونانى أو إلى ما يسمىبالجذور للفكر الغربى قد صاحبته نزعة لتصديق ما يسمى بالمعجزة فى وصف العقلية اليونانية التى ازدهر على يديها التفكير الفلسفى على نحو وصف بأنه غير مسبوق. وقد استمرت هذه النزعة واضحة فى كل ما يصدر عن الحضارة الغربية. لكن هذا أمر مشكوك فيه لأننا نجد مجموعة ضخمة من الأفكار والتيارات واللمحات الفكرية فى حضارات الشرق القديم وفى مصر وفى الحضارة الإسلامية – تؤكد لنا أن الحديث عن المعجزة اليونانية كان مبالغًا فيه إلى حد كبير. وبالإضافة إلى هذا فإن المناداة بقيمة الإنسان الفرد فى عصر النهضة ارتبط بقوة المال التى أصبحت تحرك كل شىء واتخذت أساسا للتحركات الاستعمارية وللتيارات الرأسمالية التى صاحبت أو كانت وراء نمو النشاط الاستكشافى على يد الأوربيين. ومعنى هذا أن قيمة الفرد هنا كانت مرتبطة بنمو رأس المال وظهور الميل إلى المغامرة والاندفاع فى الحياة لتحقيق النجاح والثراء أولا وقبل كل شىء وكانت كل هذه التوجهات على حساب قيم أخرى فى الفرد تعلى فيه أصوله الدينية وقيمه الأخلاقية وأيًّا ما يكون الأمر فقد بات من واجبنا أن لا نتحدث عن عصر النهضة الأوربية إلا وعيوننا مفتوحة على حضارتنا الإسلامية العربية والشرقية، وبعبارة أخرى ينبغى أن لا يخلو عن تلك النهضة من الحيطة والحذر بقدر ما يخلو فى الوقت نفسه من العتصب الأعمى المذموم، وعلينا أن لا ننسى على أى حال أن المناداة بقيمة الإنسان فى كتابات رجال النزعة الإنسانية إبان عصر النهضة كانت موجهة بصفة خاصة إلى شمولية الملكية وضد الكهنوت المسيحى أيضا ممثلا فى سلطة الكنيسة. الأمر الذى أدى إلى ظهور جماعات الفرنسيسكان ضد الدومينيكان، وذلك لتحرر الكنيسة من صرامة البابوية ولتحرر الفكر من تلك التيارات العقلية والتأملات الفلسفية التى غلبت على الفلسفات المسيحية التى كانت قد ظهرت فى العصور الوسطى، وكل هذا من أجل أن تقترب المسيحية من دين القلب الذى بشر به السيد المسيح، ومن الإنسان المسيحى الطيب الذى يحتكم إلى فطرته وإلى أصوله الدينية. وليس من شك فى أن هذا الإتجاه إلى الإنسان فى عصر النهضة

قد أدى أيضا إلى التقليل من قيمة الدراسات الكونية الكوزمولوجية التى كانت تغلب على اهتمامات فلاسفة العصور الوسطى والأرسطيين منهم بصفة خاصة مما انتهى بهم إلى وفرة بحوثهم الطبيعية الفلكية على حساب الدراسات الإنسانية بوجه عام.

* * *

obeikandl.com